

الحاجة إلى نقد الماركسية التقليدية

أ. د. أمحمد المالكى*

أكاديمي وباحث من المغرب

* مدير مركز الدراسات الدستورية
والسياسية - جامعة القاضي عياض
- المغرب

مقدمة

عرفت عبد الحسين شعبان عبر إطلاقاته المتكررة على شاشة قناة (الجزيرة)، محللاً ومناقشاً قضية حقوق الإنسان، والإشكاليات الفكرية والسياسية المرتبطة بها، وأعترف أنني لم أكن قد قرأت أعماله البحثية بعد، ولا اطلّعت على تفاصيل تجربته السياسية والاجتماعية والفكرية، كل ما تمكنت من معرفته وقتئذٍ، عن طريق آرائه، أنه عراقي الأصل والانتماء، يعيش حُرقة الغربة، ويتوق إلى رؤية بلده يخرج من شرقة الضيق السياسي أيام الاستبداد والدكتاتورية والاحتلال الأجنبي والانقسام الطائفي لاحقاً، ويحافظ على وحدته متكاملًا، متسامحًا، وقويًا، بيد أن الظروف شاءت أن أتعرّف عليه عن قرب، وأن نشارك سويًا في أكثر من مناسبة، وأن نتقاسم الأفكار والآراء، وأن نُقارب، اتفاقاً واختلافًا، قضايا كثيرة بدت مستعصية على الحل والاستقامة في المجال السياسي العربي، من قبيل (الحرية)، و(الإصلاح)، و(الديمقراطية) و(التسامح)، و(التنمية)، وما إلى ذلك من الإشكاليات التي ضغطت على العقل العربي مع مستهل الألفية الجديدة.

حدث ذلك في مناسبات عديدة، حضّنتها عواصم كثيرة، مثل (بيروت) و(عمّان) و(صنعاء) و(تونس) و(أكسفورد) و(لارنكا) في قبرص والمغرب، ولا سيما في مراكش، والحقيقة أنه كلّما سنحت مناسبة جديدة بالالتقاء، كنت أقترّب أكثر من د. عبد الحسين شعبان: المفكر والإنسان، والأهم كنت أُطلُّ على بنات أفكاره، إما من خلال النقاشات التي كانت تجمعنا، أو عبر الإصدارات التي كان يمدني بها بشكل يكاد يكون منتظمًا، فحين أهداني

(1) ينظر: عبد الحسين شعبان، تحطيم المرايا: في الماركسية والاختلاف، الدار العربية للعلوم - ناشرون، ط1، بيروت، 2009.

كتابَه الحواري (تحطيم المرايا: في الماركسية والاختلاف⁽¹⁾)، وطلب مني قراءته ونقده، ثم اتفقنا على تنظيم جلسة نقاش حول مضمونه في المغرب، أدركت مكانة هذا العمل في عقل وقلب د.عبد الحسين شعبان، وقد تأكد لي ذلك حين قرأته، وأعدت قراءته، بل إن كل قارئ لهذا الكتاب، الذي يتجاوز مجرد نص حوار، أو سيرة ذاتية حوارية، يكتشف دون عناء أنه

تجربة تنظيمية وسياسية وقلق فكري متميز، عاشها شخصياً مع (الحركة الشيوعية والماركسية العراقية والعربية)

أمام عمل فكري عميق، يبسط، بروح نقدية عالية، تجربة تنظيمية وسياسية وقلق فكري متميز، عاشها شخصياً مع (الحركة الشيوعية والماركسية العراقية والعربية)، قدّم محاوره (خضير ميري) وصفاً دقيقاً يقول فيه: وكان شعبان ومازال مثيراً للجدل في تجربته الفكرية العراقية والعربية، عصياً على

التصنيف أحياناً، لا سيّما في الاصطغافات والاستقطابات السائدة، ولعل هذا ما حاولت إضاءته بحيث تصغي إليه مفكراً وناقداً وإنساناً، استثمر الفكر بالعمل وغامر وجاهر وانقلب وتمرد لأكثر من مرة، ومازال متمسكاً بصميميته وهاجسه الأول والأخير هو الوصول إلى الحقيقة إنها الحقيقة المتعددة، التي لا تطيق التوحد، ولا تحتمل التمنيظ.

والواقع أن حوارات (تحطيم المرايا) حُجّة واضحة ومقنعة على أن الهمّ الأساسي لصاحبها لا يكمن في الإقناع بما يستحضر من وقائع وأشخاص، يقدر ما يهدف إلى استقطاب قارئه، وجلب عقله وتفكيره للاشتباك معه في تفكيك عُقد مرحلة سياسية سَحَرَت الناس وشغلت عقولهم برموزها، وتعقيداتها، وبعض نجاحاتها، وكثير من إخفاقاتها. لذلك، نلمس في لغة شعبان جرأة فائقة وصادقة في نقد الذات، وتعرية مكامن العطل في مسارات التجربة وتموجاتها، ليس في بلده العراق، إذ انخرط في العمل السياسي، ولكن أيضاً في دائرته العربية في علاقتها بالفضاءات ذات المشترك الإيديولوجي والفكري، إنه ايبستيمولوجيا المنهج (الوضعي النقدي)، الذي

(2) ينظر: عبد الحسين شعبان، تحطيم المرايا في الماركسية والاختلاف، حوار وتقديم خضير ميري، الدار العربية للعلوم - ناشرون، ط1، بيروت، 2009، ص 11.

حوارات (تحطيم المرايا) حُجّة واضحة ومقنعة على أن الهمّ الأساسي لصاحبها لا يكمن في الإقناع بما يستحضر من وقائع وأشخاص، يقدر ما يهدف إلى استقطاب قارئه

تمّ اعتماده على امتداد كل مقاطع الحوارات، ثم أن (شعبان)، وهو يتفاعل مع مُحاوره، كشف في أكثر من سياق عن فهمه النقدي للماركسية، وسعيه النظري إلى تجاوز مصادر إخفاقاتها إيجابياً، ليس عبر تقريظها، وزرع روح التشكيك في قدرتها على تطوير المجتمعات وفتح آفاق الحداثة في ربوعها، وإنما من خلال إبراز مكامن العطل

التي شابتها في الممارسة، أو على الأقل من منطلق النقد الاجتماعي للماركسية، كما أفصح شعبان شخصياً عن ذلك، ولم يتردد في التشديد على أن (الأطروحات الماركسية ليست سرمديةً صالحةً أو جاهزة لكل زمان ومكان، لا يوجد فهم موحد أو اتفاق على من تطلق عليهم مصطلح «الماركسيون»)⁽³⁾.

(3) المصدر السابق، نفسه، ص 45.

إننا وفق رؤيته الثأوية في متن حواراته، أمام نماذج متعددة من (الماركسيين)، من قبيل: (الماركسيون الطقوسيون)، و(الماركسيون المدرسيون) و(الماركسيون المسلميون) و(الماركسيون الذرائعيون)، و(الماركسيون العولميون)، وهم في عمومهم ينظمهم خيط رابط، يكمن في فهمهم للماركسية الأقرب إلى «الدوغما Dogma» منه إلى الإدراك المؤسّس على أن الماركسية فكر إنساني قادر على التجديد والاجتهاد والتطور، أبدعه الإنسان وهو قادر على الاجتهاد فيه، عوض تحنيطه وتحويله إلى ترنيمات لا روح لها، بهذا الفهم، أولى (شعبان) أهمية خاصة لماركسية القرن الواحد والعشرين، في تقابلها مع ماركسية القرنين التاسع عشر والقرن العشرين، وكأنني به يروم تقديم خطاطة نظرية، أو مصفوفة منطلقات معرفية لما يجب أن تُقرأ به الماركسية اليوم، وأخال أن المسافة التي كسبها (شعبان) في مسيرته الفكرية والمعرفية، أمدته بطاقة لا حدود لها في اجترار مساقات مغايرة لما دأب عليه الماركسيون العرب في قراءة تجاربهم التنظيمية والسياسية، هل توفق في رفع منسوب إقناع القارئ بقوة ما عدّه تجديداً في الماركسية، كما عاشها، وعاشها، وظل محايثاً لها؟ وحدها القراءة الفاحصة لـ (تخطيط المرايا)، تُجيب عن هذا الاستفهام.

لم يكن صدفة، في ما نظنّ، اختيار (شعبان) عنواناً دقيقاً ولافتاً لمؤلفه الحواري، فالأمر يتعلق بـ (التخطيط)، وتخطيط المرايا على وجه التحديد، ومقابلة (الماركسية) بـ (الاختلاف) في العنوان الفرعي، لذلك، جاءت مقاطع عمله مُعبّرةً عن هذا المنحى أو المنهج في التفكير، ونميل إلى تأكيد أن السياق العالمي والإقليمي والداخلي حَرَضَ (شعبان) على اعتماد النقد الداخلي للماركسية، والسعي إلى بلورة منطلقات منهجية ونظرية جديدة، لا تروم التقليل من شأن الماركسية، كما ألمحنا أعلاه، بقدر ما تدافع عن فرضية أن روح

السياق العالمي والإقليمي والداخلي حَرَضَ (شعبان) على اعتماد النقد الداخلي للماركسية، والسعي إلى بلورة منطلقات منهجية ونظرية جديدة

الماركسية، كمنهج وأفكار، لازالت متّقدّة، تحتاج لمن يجددها، وينزع عنها طابع البوار الذي ألمّ بها في قلب وجودها، فبالأحرى في الأطراف التي هاجرت إليها .

ينطلق شعبان، وهو مُحقّق في ذلك، من أن الماركسية ثابتة ليس في بمعناها السكوني، بل في الأداة والوسيلة ومتغيرة في الغاية، لأنها تحلل وتفسر التطورات التي تجري في العالم، بيد أن الماركسية بحسبها فلسفة، أي منظومة أفكار، تسعى إلى تغيير ما هو ثابت، ولكن ثباتها ليس مطلقاً وإنما نسبياً وهو تثبت المفاهيم القائمة على التغيير⁽⁴⁾.

(4) المصدر نفسه، ص 57.

بل زادَ موضعاً: (أنا أومن بالحقيقة العلمية بمساعدة الماركسية، ولن يكون ماركس مهماً لأنه امتلك النظرية، بل لأنه توصل إليها، ولعل ما توصل إليه ماركس لن يكون هو الحقيقة الوحيدة أو الفكرة النهائية لما توصل إليه هو، وذلك لأننا اكتفينا بالقراءة الماركسية التي توصل إليها ماركس، ولم نستمر نحن بدورنا تطبيق قراءة ماركسية على ماركس، وهكذا كان الأجدر بنا قراءة المنهج الذي قرأ في ضوءه ماركس ماركسيته، وليس الاكتفاء بماركس وتحنيطه وترك ماركسيته جانباً)⁽⁵⁾.

(5) المصدر نفسه، المكان نفسه.

والحقيقة أن فكرة (التحنيط)، أو تحويل الماركسية، بحسبها منهجاً ورؤيةً للتاريخ والمجتمع، إلى عقيدة إيمانية غير مختلفة عن الدين في شيء، من الأعطاب البنيوية التي وسمت تفكير وممارسة الماركسيين والاشتراكيين العرب، علماً أن الفرق شاسع بين الدين والإيمان، حيث المطلقات واليقينيات، والتاريخ المؤسّس في كُنْهه على أفعال البشر، وهي بطبيعتها أعمال نسبية وغير مطلقة، فحجة (شعبان) في نقد ظاهرة (تحنيط) الماركسية، لاسيما في دائرتنا العربية، وإلى حد ما (العالم ثالثة)، أن يكتسب الماركسيون العرب استقلاليتهم الفكرية، ويستفيدوا من المنظومة الاشتراكية ومَعِينِها الفكري والمنهجي لقراءة أوضاعهم وتحليلها، وتغييرها بالقدر الذي يحافظ على ارتباطهم بواقعهم التاريخي، ويساعد على جعل لُحمة التواصل مع مجتمعاتهم مستمرة، عميقة، وفاعلة وفي هذا المصّب، لم يتردد صاحب «تحطيم المرايا» في إقامة مقارنة عمودية بين الماركسيين العرب ونظرائهم في الأحزاب الشيوعية والاشتراكية الأوروبية (حالة اسبانيا على سبيل المثال)⁽⁶⁾، ليخلص إلى أن بقدر ما جهدت أسماء شيوعية

(6) المصدر نفسه، ص 52.

واشتراكية أوروبية من أجل تجديد فهمها للماركسية واعتماد مقاربات متطورة، قريبة من واقع بلدانها، بالقدر نفسه أخفق نظراؤها العرب في تطويع الماركسية الوافدة عليهم لتغدو متساكنة مع أوضاعهم، والأهم قدرة على تغيير أحوالهم نحو الأفضل .

ومع ذلك، يستشرف (شعبان) بتفاؤل ما يجري من محاولات اجتهادية لإعادة قراءة (الماركسية)، بمعين منهجي ونظري جديد، لاسيما في الضفة الشمالية من المتوسط، فبالنسبة إليه هناك أممية جديدة في طورها إلى التأسيس بعيدة عن مفاهيم التابع والمتبوع وصيغ الإذعان و(الرفيق الأكبر) و(الأصغر) والتدخل بالشؤون الداخلية، بل أساسها الاستقلالية والاحترام المتبادل والتضامن الأممي والاجتهاد والتنوع في تطبيق الماركسية النقدية، غير الأرثوذكسية أو الماركسية المحتطة⁽⁷⁾.

هناك أممية جديدة في طورها إلى التأسيس بعيدة عن مفاهيم التابع والمتبوع وصيغ الإذعان و(الرفيق الأكبر) و(الأصغر)

(7) المصدر نفسه، ص 53.

فماركسية ما بعد ثورة أكتوبر (هي نوع من تقنين وقولبة للماركسية حيث تحولت بسرعة غير عادية إلى شيء أقرب إلى اللاهوت، انفصلت عن الماركسية الرحبة⁽⁸⁾، إنه المآل الذي حرّض (شعبان) على الحكم على ما أسماه (الماركسية الرسمية) بالانتهاء، وجفاف معينها، لكونها ابتعدت، في تقديره، عن الماركسية الفلسفية، وروحها النقدية وأطروحاتها الوضعية الجدلية، وتحولت إلى ماركسية بيروقراطية غير مبالية بمنهج النقد الوضعي أو الماركسية الوضعية.

(8) المرجع نفسه، ص 56.

نلمس عند (شعبان)، علاوة على حدة نقده لماركسية القرن العشرين، الموسومة بقدر مرتفع من «الانحرافية»، دعوة صريحة ومستمرة إلى رد الاعتبار للتراث الماركسي بإعادة قراءته في أصوله بغية تملكه منهجياً ومعرفياً، بل نلمس تشديداً على فك قيود الماركسية التي نسجتها تأويلات ما بعد ثورة أكتوبر 1917، وربطها بأصولها، كذلك تكونت مع اجتهادات مؤسسي القرن التاسع، وفي مقدمتهم (ماركس)، و(انجلز)، فهكذا، استعار (شعبان) نعت (الاعتقال) من الشاعر (أدونيس). ليصوغ (ما يشبه المانفستو)، في تحريضه على اجترار (ماركسية جديدة)، هي (ماركسية ما بعد الحداثة)، التي عدّها الأفق المطلوب لنزعة شوائب التحنيط التي طالت الماركسية حين انتقالها من التفكير إلى الممارسة، بل عدّ صاحب (تحطيم المرايا) انهيار

الاتحاد السوفييتي لحظة تاريخية سانية، بامتياز، للاندفاع في دينامية تجديد التراث الماركسي، ونزع الطابع الأسطوري والتقديسي الذي لفَّ جوهره ومظانّه النظرية والمعرفية.

ولعل أكثر ما يشدّ القارئ، ويُلَفّت انتباهه، وهو يتابع خيط تفكير (شعبان) في ما اقترحه (ماركسية ما بعد الحداثة)، خلخلته لبعض الفرضيات الذهنية التي استبدت بعقول الكثير من مؤيدي الماركسية وأنصارها، لاسيما خارج المجال التاريخي والحضاري الأوروبي، ومنها على سبيل المثال، إشكالية التطابق بين النظرية والتطبيق.. فعلاوة على نفيه القاطع وجود إمكانية للتطابق بين ما نفكر فيه ونُنظّر له، وما نمارسه في الواقع، ابتدع مفهوم أو مصطلح (التخالق)، وهو في ما نظنّ أكثر تعبيراً وإجرائيةً، حين قياس درجة المماثلة بين التفكير والفعل أو الممارسة، فالفرق لازم وموجود بين (الرغبة) و(الممكن) كما يُقال، ولو أن الماركسية نفسها تحدثت عن (البراكسيس Praxis).

نفيه القاطع وجود إمكانية للتطابق بين ما نفكر فيه ونُنظّر له، وما نمارسه في الواقع، ابتدع مفهوم أو مصطلح (التخالق)

لاسيما استمرار وجودي في الحزب الشيوعي دون قناعاتي لفترة قصيرة، خصوصاً عدم انسجامي مع العديد من أطروحاته، وكذلك توقفت عند تجربتي في قيادة الانشقاق عنه وتشكيل حركة المنبر وإصدار جريدة المنبر في حينها⁽⁹⁾.

(9) المصدر نفسه، ص 62.

يمكن القول إن حوارات القاهرة، التي غطّت القسم الأول من (تخطيط المريا) (ص: 15 - 64)، قاربت، في جوهرها، سؤال المنهج في قراءة الماركسية وإعادة قراءتها، والحال أن الأمر لا يستقيم بمجرد ممارسة النقد من الداخل، والدعوة إلى تجاوزه إيجابياً، بل يتطلب، علاوة على ذلك، استجلاء وتدقيق ما يرتبط به من قضايا وإشكاليات، وهو ما نبّه عليه المحاور في صدر القسم الثاني، أي حوارات بيروت، ثم إن مؤلف (شعبان) الحواري كلّ متكامل، يصعب فصل جزء عن الجزء أو الأجزاء التي تليه، وإن بدت موضوعاته شبه موزعة، فهو كالفيلسوف لا تكتمل صورته وجماله إلى بجمع قطعِه في لوحة واحدة.

عُظّت حوارات بيروت قرابة نصف حجم الكتاب (ص: 65، 165)، وقد عالجت أربع قضايا بالغة الأهمية، هي تحديداً: ما بعد الحداثة، والثقافة

وإصلاح الفكر الماركسي، والدين والهوية، والمرأة والحب والجنس. بيد أن قراءة القسم، كما أسلفنا الإشارة، لا توحى بأننا أمام سيفر جديد، أو حوار مقطوع الصلة بما سبقه، بل بالعكس نلمس وجود خيط ناظم بين ما أثير في القاهرة وما أعقبه في بيروت.. يكمن الفرق فقط في الجغرافيا، في تبدل المكان بين عاصمة المعزّ بدين الله الفاطمي وبيروت الشامخة منذ الفينيقيين، بدليل أن (شعبان)، وهو يرد على أسئلة مُحاوره، عاود بسط رؤيته لماركسية ما بعد الحداثة، التي أعلن عنها في مقاطع من حوارات القاهرة.

يبدو (شعبان) شغوفاً بالتاريخ، ليس كحقل معرفي، بل كمحدد ومفسّر للأحداث والتحوّلات، والنجاحات والإخفاقات، فالتاريخ ليس خزاناً للوقائع والأحداث، كما يعتقد الكثيرون، ولكنه كمؤدّد لمعرفة سيرورات الأشياء ومساراتها، وفي هذا الصدد لم يتردد في نقد (فوكو)، الذي وسمه بـ (المؤرخ المُشوَّش)، حين انصاع لإرادة (النسق الذي قاده إلى ما يشاء لا إلى ما يشاء هو)، غير أنه رفع من قامته (ماركس)، الذي كان، في تقديره، (يقرأ على الأنساق والبُنى الفكرية بحثاً عن الإرادة الإنسانية والموجّه التاريخي)⁽¹⁰⁾، فهل يسمح متنّ (تحطيم المرايا) بالقول إن شغف صاحبه بالتاريخ لا يسوغه إلا شيء واحد، هو تطلّعه للإمساك بمصادر التفسير الموجهة نحو التغيير.

(10) المصدر نفسه، ص 68.

ويستمر شعبان وفيّاً لمنهجه الوضعي النقدي في مقارنة مجمل القضايا المثارة من مُحاوره، وإن تباعدت مجالاتها المعرفية ومساقاتها النظرية والفكرية. فالمعروف عن صاحب تحطيم المرايا، علاوة على اهتماماته الفكرية المتعددة وشغفه الدءوب بهموم المجتمع المدني، تكوينه القانوني والحقوقى تفكيراً وممارسة. لذلك، نراه خلافاً للمدارس القانونية الوضعية، يعتمد منهجياً مادياً (ماركسياً) في النظر إلى قواعد القانون الدولي والعلاقات الدولية، كما تُمارس في الواقع، إذ يربط بينها وبين موازين القوى السائدة، ويُعزز تحليله بأمثلة من الواقع الدولي (قرارات)، ساهم شخصياً، ولو بشكل نسبي، في سياقاتها العامة⁽¹¹⁾.

(11) راجع مؤلفه الحوار «تحطيم المرايا»... مصدر سابق، ص 83 - 87.

أشرنا في أعلاه إلى أن حوارات بيروت مسّت أربع قضايا بالغة الأهمية، تندرج عمومها في دائرة اهتمام «شعبان» الفكرية والسياسية. فضلاً عن موقفه

قدّم منظوراً نوعياً لمفهوم الثقافة والمثقف، وقضية الالتزام الثقافي، وطبيعة المثقف اليوم، أي في السياق الحضاري الموسوم بالعولمة

من النقاشات المتناشلة حول فلسفة ما بعد الحداثة وإشكالية تجديد الماركسية، أو الدعوة الصريحة إلى (ماركسية جديدة)، قدّم منظوراً نوعياً لمفهوم الثقافة والمثقف، وقضية الالتزام الثقافي، وطبيعة المثقف اليوم، أي في السياق الحضاري الموسوم بالعولمة، والثورة المتنامية لتكنولوجيات الاتصال والتواصل الحديثة. وكعادته، لم يفتّه، وهو يبسط وجهة نظره في قضية الالتزام ومهام المثقف، الإشارة إلى كوكبة من المثقفين الذين بصموا سجل الثقافة العربية وأثروا في مجرياتها، من قبيل الشاعر لعراقي الكبير (الجواهري)، والمفكر والكاتب (هادي العلوي)، ولعل أعظم ما يشد انتباه القارئ مثلي، وهو يُمعن في مقاطع تحليل (شعبان) لإشكالية الثقافة والمثقف، دفاعه الشرس عن استقلالية المثقف وتجّره، واستقامته، ونزاهته الفكرية، في أوضاع موبوءة بالمغريات، وكل أصناف الوسائل الجاذبة إلى الإفساد.

لذلك، نرى حال لسانه يقول: «إن حفاظ المثقف على ثقافته وعلى نفسه وعدم التفريط بهما، لأنهما ثروة وطنية نفسية لا يُستهان بها.. «ليضيف» مع الأسف بعض المثقفين تحولوا إلى جلادين إن كانوا قريبين من السلطة أو حتى في المعارضة، مثلما تحوّل قسم آخر منهم إلى كتّاب تقارير رخيصة ضد زملائهم، وكانوا جسراً لعبور السياسيين لاسيما أصحاب (الطموحات) الكبيرة، الذين لم يتورعوا حتى من الصعود على الجماجم في السلطة أو خارجها، لتحقيق مآربهم»⁽¹²⁾، لم يكن في مُكن (شعبان) وهو الذي وُلد وترعرع رداً من الزمن في سباق مجتمعي متدبّن، أن يتجنب الحديث عن (الماركسية والدين)، والأهم أن يفكك الصورة النمطية التي وسمت الماركسية كثيراً وجعلت منها نفيّاً للدين، وحوّلت معتنقيها إلى مجموعة من الملاحدة ليس إلا.

ولعلّ ما شدني أكثر إلى مقاربتة لأطروحة الدين في حياة الناس فصله المنهجي بين أمرين يبدوان متناقضين في المخيال الجماعي للمجتمعات، أي الدين والعقيدة من جهة، والعقل من جهة أخرى، لذلك، نلمس في مقاربتة لإشكالية الدين في علاقته بالتراث الماركسي نقداً للماركسية، وإن بشكل لبيب وفيه قدر من الاحتراز، فالماركسية لا تخلو، في ظنه، من الهفوات وجوانب القصور، على أساس أن أعلامها بشر، والبشر خطّأون بطبيعتهم،

(12) المصدر نفسه، ص 104.

ثم إن تشديده واضح على أهمية الدين، ليس للمسلمين وحدهم، بل لكل أبناء جلدتهم من الديانات التوحيدية الأخرى، حُجَّتَه في ذلك أن للدين والعقيدة والإيمان وظائف نفسية وسيكولوجية، ما أحوج البشرية إليها⁽¹³⁾.

(13) أنظر المصدر نفسه، ص 127.

ويذهب «شعبان» عميقاً في تفسير ضرورة الدين فيعده ركناً من أركان الاجتماع البشري، وينظر إلى «محاسبة الدين أو مقياسه في ضوء المنطق العقلي إجحافاً في حق البحث العلمي وتقصيراً تنقيبياً»⁽¹⁴⁾. ويتابع، في المصّب نفسه، إضاءة زاوية نظره حُيال إشكالية بالغة التعقيد والحساسية، لاسيما في مجالنا التاريخي والحضاري العربي. ففي إجابته عما إذا كان الدين عائقاً بنيوياً للتنوير، أكد على أن (فهم التاريخ العربي بمعزل عن المكون الغيبي أو الجوهر الروحي، هو نوع خالم أو مستعار من أشكال الحداثة الغربية)، مضيفاً (وهذا لا يعني أن نستسلم لفهم التاريخ كما هو، بل أن نسعى إلى تقديم نقد شمولي له، وهو النقد الذي بالحسبان فهم المكون العقلي والروحي للشعوب، وليس تقديم النظرية على التاريخ الوضعي)⁽¹⁵⁾.

(14) المصدر نفسه، ص 128.

(15) المصدر نفسه، ص 129 - 130.

ومع ذلك، تحفّز معالجة (شعبان) للمسألة الدينية في مجالنا التاريخي والثقافي العربي على تقديم مصفوفة من الأسئلة، لعل أهمها سؤال ما إذا كان يروم من مقارنته، كما بسطها حصراً في حوارات بيروت، تحقيق نوع من التوفيق بين ما هو روحي وما هو عقلي في حياتنا الجماعية، حجته في ذلك، أن الطابع الغالب على النظرة الماركسية للدين ظل في جوهره إيديولوجياً، وذي منحى دعائي. فالدين، في تقديره، (يمتلك مقومات حضارية كبيرة، وهو نظام كلي يحتفظ للإنسان حقوقه وواجباته ويقدم صورة للأخلاقية، خيرة موروثة، ولا يمكن عدّ الدين صورة من صور التخلف الاجتماعي أو العائق الحضاري).

أن الطابع الغالب على النظرة الماركسية للدين ظل في جوهره إيديولوجياً، وذي منحى دعائي

تأسيساً على هذا الفهم صاغ صاحب (تحطيم المرايا) نقداً مزدوجاً لبناء التراث الماركسي وأنصاره من الشيوعيين والاشتراكيين العرب، بخصوص مواقفهم الإيديولوجية من الدين وما يرتبط ويتفرع عنه من قضايا. فنعت الحركة الشيوعية والتيارات الماركسية بعدم استيعابها حقيقة الدين في حياة الناس، حين مارست قدراً كبيراً من التعالي والفوقية إزاء العالم الروحي

**لعلنا لم ندرك التأثير المهم
للدين إلّا في وقت متأخر،
ولذلك كان موقفنا أو بعض
تصرفاتنا خاطئة**

للإنسان، مستدلاً بالممارسات التي أعقبت ثورة أكتوبر 1917، إلتي قَسَتْ في جوهرها على الكنيسة وتوابعها والملاحظة النقدية نفسها وُجِّهت إلى التنظيمات الشيوعية في المنطقة العربية، إذ وُسِّمت في متن الحوار بـ(النزعات

التدميرية) إزاء الموقف من الدين، بل نُظِرَ إلى الشيوعية كإلحاد وكُفْر، وجب اتِّقاء شرهما⁽¹⁶⁾، وما هو لافت للانتباه، صراحة «شعبان» وجرأته في تقديم نقد ذاتي حُيال الموقف السلبي من الدين، حين قال: «لعلنا لم ندرك التأثير المهم للدين إلّا في وقت متأخر، ولذلك كان موقفنا أو بعض تصرفاتنا خاطئة، وذلك بسبب الأدلجة وأساليب الدعاية والترويج، وما كان يصلنا من معلومات ناقصة أو مبتسرة أو حتى مشوهة»⁽¹⁷⁾.

(16) المصدر نفسه، ص 134.

(17) المصدر نفسه، ص 139.

لا يستقيم الحديث عن الدين لدى بعض المجتمعات، ومنها مجتمعنا العربي الإسلامي، دون إثارة مسألة الهوية، التي قد يشكّل الانتساب الديني والعقدي أحد روافدها. لذلك، كان منطقياً أن تحظى الهوية بنصيب في متن حوارات «شعبان»، وهو الذي أصدر في سنوات مقاربة (2002 - 2005) ثلاثة مؤلفات أشد الالتصاق بقضية الهوية وما يتفرع عنها. فقد تساءل عن من هو العراقي؟، وعن العلاقة بين الهوية والغرب في (الإسلام والإرهاب الدولي)، وظلت الهوية حاضرة حين كتب عن (فقه التسامح في الفكر العربي الإسلامي).

والحقيقة أن مقاربة صاحبنا لهذه الإشكالية، وفي هذه الحقبة التاريخية الدقيقة من مسيرة مجتمعنا العربي الإسلامي لها أكثر من مسوغ.. فـ(شعبان) عراقي الانتماء، عاش تنوعاً ثرياً في هويّة وطنه، نخالهُ الأكثر غنى وتعقيداً في المنطقة العربية، ودافع باستماتة عن حق بني جلدته في أن يتمتعوا بتكافؤ بشاء تنوع هويتهم، وكابد محنة بلده وهو يرى وحدته تتآكل بسبب تدمير هويتها، وإذكاء جذوة الطائفية في نسيجها المجتمعي العام، وأميل إلى الظن أن الخلفية القانونية والحقوقية التي ميّزت تكوين «شعبان»، لاسيما منظومة القانون لحقوق الإنسان، صقلت وعيّه، وعمقت إدراكه حُيال الهوية، من حيث أهميتها وخطورتها في الآن معاً.

ينتقل «شعبان» من الموضوعات الفكرية الأكثر صلابةً وربما تجريداً، إلى موضوع طريف ختم به القسم الثاني من كتابه الحوار، إنه (المرأة والجنس

والحب)، فيرسم، بقدر كبير من الحبكة والطرافة، صورة عن مكانة المرأة والجنس والحب في أدبيات الماركسيين وممارساتهم، وبإيحاءاته الذكية لا يتردد في توجيه سهام النقد إلى نظرائهم العرب، الذين فعلت (البداءة) ونزعة الترييف فعلها السلبي في نظرتهم إلى نصفهم (المرأة)، ووسائل الكياسة اللازمة للتعامل معها.

سيكون من الإنصاف، في ختام هذه الورقة، الاعتراف بجهد صاحب «تحطيم المرايا» في تقديم رؤية جديدة للماركسية، كما فهمت ومورست في منطقتنا العربية، وربما للتراث الماركسي، كما طُبق حين تمكّن أنصاره من الانقضاض على السلطة بعد ثورة أكتوبر 1917. والحقيقة أن تلك سنة أو قانون يكاد يكون مشتركاً بين الإنسانية. ليس من يقوم بالثورة - وإنتاج الأفكار ثورة بكل المقاييس هو نفسه الذي يقطف ثمارها، فكثير هم الذين تنكّرت الثورات لهم على الرغم من أنهم كانوا في صدارة اندلاعها، ثم إن (شعبان)، وهذا جانب آخر من جهده الكبير، قدّم إجابات عن إشكاليات تبدو وكأنها مزمنة وقديمة، لكنها في الحقيقة أقرب ما تكون من صلب الواقع، وأخال نفسي وهو يجيب عن أسئلة محاوره كان الحاضر ماثلاً أمامه بكل ثقله وضغطه وتحدياته .

**ليس من يقوم بالثورة -
 وإنتاج الأفكار ثورة بكل
 المقاييس هو نفسه الذي
 يقطف ثمارها**

